الأدب والأسطورة

1/ المفهوم:

يمكن القول إنّ الأسطورة هي الوسيلة المعرفية الأولى التي اهتدى إليها الإنسان لتفسير ظواهر الكون، فالغاية من ورائها معرفية من ناحية وطقوسية من ناحية أخرى بمعنى أنّها تعكس معتقدًا مقدسًا يتلخص في إيمان الإنسان القديم بوجود قوى خارقة تمثل السبب في حدوث الظواهر المختلفة، لكن الفكر الإنساني لا يتوقف عند حد معين في نزوعه للبحث عن الحقيقة ما جعل تلك التصورات تتداعى تدريجيًا أمام سلطة العلم وفتوحاته فأنزلت تلك الأساطير منزلة الحكاية المسلية في المراحل الأولى، إلاّ أنّها قد اكتسبت أبعادًا جمالية بدخولها في مجال الأدب والفن خلال القرن التاسع عشر.

جلب القرن التاسع عشر في أوروبا " ثورة فنية وجمالية، أعادت للأسطورة رونقها وبهاءها كشكل فني تعبيري من أشكال الفلكلور والأدب الشعبي ، بعد أن أراد أصحاب عصر الاستنارة في القرن الثامن عشر محوها، ولم تكن إعادة الاعتبار هذه إلا مرحلة أولى فما لبث الرومانتكيون أن مشوا خطوات أبعد في النظر إلى الأسطورة فاعتبروها أصلا للفن والدين والتاريخ وصارت لهم منهلاً ثراً وملهماً".

ثم اتجهت إليها العلوم الإنسانية للبحث عن المعاني العميقة وراء سلوكات الإنسان والدوافع الكامنة خلفها، وكذا حياته في أبعادها النفسية والروحية، فأصبحت مادة غنية في مختبرات علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، كما ظهر فرع جديد من المعرفة يعنى بدراسة وتفسير الأساطير يسمى الميثولوجيا /Mythologie.يعني الشق الأول حكاية تقليدية عن الآلهة والأبطال، أما الشق الثاني فيعني العلم.

2/ سمات النص الأسطوري:

تعد الأسطورة محط اهتمام علماء الفلكلور والانثروبولوجيا والعلوم الإنسانية عموما، فكل طرف يحاول أن يضفي عليها دلالات دعائية تنتقص من قيمتها، كما تتضمن

كل أسطورة موقفا إنسانياً جوهرياً عند جماعة معينة ما يجعل الحديث عنها مغريا في مجال الأدب مثل قضية السخرية من الموت في أسطورة أنتيجون.

ونظرًا لصعوبة تحديد مفهوم هذا المصطلح ارتأى فراس السواح إلى وضع جملة من المحددات التي تجعل من نص ما ينضوي تحت مسمى الأسطورة، ألا وهي:

أ–من حيث الشكل الأسطورة قصة سردية شفوية تتوفر على حبكة وعقدة وشخصيات، غالبا ما تصاغ في قالب شعري يساعد في ترتيلها في المناسبات الطقسية .

ب–يحافظ النص الأسطوري على ثباته لفترة طويلة من الزمن وتتناقله الأجيال نظرا لتوفره على طاقات إيحائية بالنسبة للجماعة التي تتبناه تبنيا عقدياً، دون أن يعني ذلك جمودها وعجزها عن إدخال التعديلات.

ج– ليس للأسطورة مؤلف معين، لأنها نتاج المخيال الجمعي .

د–تلعب الآلهة وأنصاف الآلهة أدوارا رئيسية في الأسطورة في حين يكون دور الإنسان دوراً مكملاً.

هـ–تتميز موضوعات الأسطورة بالجدية والشمولية مثل الأصول والتكوين والموت والعالم الآخر ومعنى الحياة وسر الوجود متخذة من الخيال والعاطفة والترميز، كما أن أحداثها تجري في زمن مقدس فرسالتها غير زمنية بل سرمدية ما يجعلها ماثلة بشكل دائم، فالأسطورة لا تقص أخبارا عن الزمن الماضي فقط فإله الخصب الذي قتل ثم بعث من جديد موجود دائما في دورة الطبيعة وتتابع الفصول.

و–ترتبط الأسطورة بنظام ديني معين وتعمل على توضيح معتقداته وتدخل في صلب طقوسه.

بناءً على ما سبق يمكن القول أن الأسطورة هي حكاية مقدسة ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان، إذ يراها المعتقدون

بقداستها رسالة سرمدية موجهة لبني البشر تبين حقائق خالدة وتؤسس لصلة دائمة بين العالم الدنيوي والعوالم المقدسة.

3/ الانتقال من الأسطورة السلالية/ الدينية إلى الأسطورة الأدبية:

يعكس هذا الانتقال تطورا على صعيد وعي الإنسان بالعالم والوجود، إي الانتقال من المقدس إلى الدنيوي.

يرى كلود ليفي شتراوس أن الأسطورة المنتقلة إلى الأدب تمثل آخر همسة في البنية المنتهية، في حين يرى بيير برونيل أن الفضل يعود للأدب والفنون اليوم في المحافظة على الأساطير وضمان استمراريتها، مشيرًا إلى أن دخول الأساطير مجال الأدب يكسبها أبعادًا جديدة، فلا وجود لأسطورة أدبية دون " تقمص يحييها في عصر تكون قادرة على فيه على التعبير الأمثل عن مشاكله الخاصة".

تتوفر الأسطورة على ثلاث سمات: الشمول والتحول والتنظيم الذاتي.

تعد الأسطورة نصا أوليا أو قصة مبرمجة يعيد تشكيلها الأدب دون أن يصل إلى درجة مناقضتها، وبهذا تفقد طابعها المقدس وتصبح مكونًا جماليًا في النصوص الأدبية، ولعلّ انجذاب الأديب نحو استثمار الأسطورة في نصّه الإبداعي يُعزى إلى ما تتمتّع به من بناء فني راقٍ، وحكاية ساحرة، واشتمالها على عناصر التشويق فضلاً عن البعد الإنساني الواضح في مضمونه.

يميز بيير برونيل ثلاث عناصر لتعريف الأسطورة ألا وهي : الوظائف

1/ الأسطورة سرد: وهذا ما يميزها عن الحوار والمناقشة حسب أفلاطون، فهي قصة مقدسة تروي حدثا جرى في الزمن الأوّل.

2/ الأسطورة تفسير: إذ تبحث عن الأسباب لتوضيح الواقع والوجود،.

3/ الأسطورة كشف: فإذا كانت الأسطورة تكشف المقدس فإن الأسطورة الأدبية جواب أيضاً.

تخضع الأسطورة في الأدب إلى تحولات ذات طابع فكري وجمالي، فتفعيلها يرتبط بما يتطلبه الواقع الجديد، إذ يقول جان لوي باكس: " إن الأسطورة ليست مادة للتفسير وإنما هي موضوع لمعارف من حياة سابقة" ولهذا يجب تقويم هذه المعارف عند استحضارها.